الصوتيات المفرغة للشيخ الخليفي (32)

الغلظة من رقة القلب

كتبه الشيخ:

أبو جعفر عبد الله بن فهد الخليفي

@akulife

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته

هناك في صحيح البخاري كتاب اسمه كتاب الرقاق[1]، ويعني به كتاب المواعظ والزهديات، الأمور التي ترقق القلب، كل عضو في البدن تُحمد صلابته إلا القلب، تحمد رقته.

عنوان رقة القلب عنوان فاشٍ في كلام أهل العلم، وعنوان محبب لكثير من الناس.

تقرأ في قول اللّه عز وجل ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ هذا من رقة القلب، من السبعة الذين يظلَهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : "رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه"[2] هذا من رقة القلب، الخشوع رقة القلب البكاء من خشية اللّه، محبة الخير لأهل الإيمان، هذا كله من نعيم الجنة العاجل، الشعور بالخشوع في الصلاة أو أن يجد المرء لذة الذكر هذا أمرٌ إذا جاء على وجهه للإنسان، لا تُقارَن به الملذات الأخرى حقيقة، ولكن إن جاء على لذة خالصة لا تُخشى لها مغبة البتة -سبحان الله-.

---

[1] صحيح البخاري (الكتاب ٨٤)
[2] صحيح البخاري (١٣٥٧)

هنا نقف وقفة عند بعض النصوص الأخرى في جانب آخر حين تسمع فلان "رقيق القلب" كيف تتوقع تصرفاته ؟
تقول : أتوقع أنه سريع الدمعة، أتوقع أنه رحيم بالمساكين أتوقع أنه يبر والديه، أتوقع أنه يعتذر إذا أخطأ، أتوقع أنه يتصدق، أتوقع أنه محافظ على صلاته -بطبيعة الحال-، أتوقع أنه يعفو عمن أساء له، هذه هي صفات رقيق القلب، والصفات القريبة.

حين تقرأ في القرآن : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ يعني في الزانيين إذا جلدتوهما، ومن باب أولى في المرجومين.
وحين تقرأ في القرآن : ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ هل هذا أمر يناقض رقة القلب ؟

إذن الله عز وجل يأمر بما تقتضيه رقة القلب، ويحث سبحانه وتعالى على ترقيق القلب. حين يأمرنا أن لا تأخذنا رأفة بإنسان بعينه، أليس هذا في تصورنا من قسوة القلب ؟
أليس هذا في تصورنا من الصفات التي لا تتبادر إلى أذهاننا إذا سُئلنا عن صفات رقيق القلب؟

في الواقع الباب كله واحد، والذي لا تأخذه رأفة في الزانيين، هذا إنسان رقيق القلب، ولكنه حكيم، والذي جاهد الكفار والمنافقين هو إنما جاهدهم لأن قلبه رقيق.

عجيب كيف هذا؟

من الذي طبق هذه الآية في الأمة أعظم التطبيق بعد نبينا ﷺ؟ أبو بكر الصديق، أبو بكر الصديق رضي الله عنه جاهد الكفار والمنافقين وأغلَظ عليهم، وكان المرتدون من المنافقين الذين أظهروا النفاق بعد وفاة النبي ﷺ؛ فأغلظ عليهم الصديق أعظم غلظة، حتى لما جاءه التائبون منهم قال: " تشهدون أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار؟"[1] أبو بكر الصديق الأسيف[2]، الذي يبكي في الصلاة! أبو بكر الصديق رجل رقيق القلب جدا، ما الذي جعله يفعل هذا ؟

رقة قلبه؛ لأن رقة القلب هنا تعظيم لله عز وجل محبة لله عز وجل والمحب ليس بابه دائما الأمور الهينة اللينة، بل أيضا في المحبة يغضب لمحبوبه ويشتد لمحبوبه وينتقم لمحبوبه، لكن بانضباط كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ -حديث عائشة- لم يكن ينتقم لنفسه، حتى تُنتهك حرمات الله فينتقم لله.[3]

---

[1] السنة للخلال (٤٧٧)
[2] صحيح البخاري (٧١٣)
[3] مسند أحمد (٢٥٩٥٦)

النبي ﷺ رأى الصحابة يتجادلون في القدر، يقول الراوي: "فكأنما فُقئ في وجهه حب الرمان"[1] من الغضب، فقال: "أبهذا أُمرتم" سأل صحابيا فعل في قومه شيئا قال: "غضبا لنفسك أم غضبا لله ورسوله" قال: غضبا لله ورسوله.

وحتى لا يتشوش عليك الباب، الآن ألَا تجد: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ وأيضا تجد: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ كيف الجمع؟ الجمع أن من الناس من تجاوز الحد: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فهذا يُشرع في حقه الغلظة، وأما من الناس من هو جاهل مستفهم، ومنهم من هو مؤمن زلت قدمه، من ذوي الهيئات فعثر.

حديث الانتقام لله عز وجل هذا، أورده البخاري أين؟ في كتاب الحدود،[2] وهذا يوصلك إلى فهم المسألة كما ينبغي اليوم عموم الناس تعجبه عناوين في الشريعة ويشعر أنه لا يمكن أن نعيش بدونها، لكن هناك عناوين تحرجه، هو لم يفهم هذه الثنائية، من الممكن أن نفهمها في علاقة الأب بأبنائه، الأب المحب الحنون دائما تجده لينا مع أبنائه؟ أم أنك تجده في بعض اللحظات شديدا؟

---

[1] مسند أحمد (٦٨٤٥)

[2] صحيح البخاري (الكتاب ٨٩)

وهذه الشدة ربما تكون تطبيقا لمحبته أكثر من لينه؛ لأن فيها على المشدود عليه من عناوين الخوف ومحبة الخَير له ما لا يكون في أمور المودة والمحبة وغير ذلك ما أحيانا يفعل أمور يستمتع بها مع أبناءه.

الآن عمر بن الخطاب ألا يُعد من رقيقي القلب؟

نبي الله موسى الذي أخذ برأس أخيه ولحيته، ألا يعد من رقيقي القلب؟

والله هو من أرق الناس قلبا، ومن أرحمهم بالمسكين، وانظر إلى فعله مع المرأتين في مدين، المبدأ واحد، يعني اليوم لما تأتَي تتحدث تقول: هناك رجل غضب على أخ له في أمر من أمور الدين فأخذ برأسه ولحيته، وتذْكر رجلا رأى امرأتين وضعهما واحد اثنين ثلاثة فأعانهما، اليوم الناس مثلا يستهجنون الأول ويستحسنون الثاني، نبي الله موسى ترى البابين عنده واحد، كيف ترى البابين واحدا؟

لأنه لمّا فعل هذا بأخيه كان غضبا لله؛ وهذا من رقة قلبه، هذا تعامل مع الله، ولمّا أعان المرأتين كان إعانة لهما حبا في الله وتعبدا لله وتدينا لله عز وجل

واستشعارا للفقر إليه سبحانه وتعالى، عمر بن الخطاب أليس رجلا لين القلب ؟

مشهور، رجل زاهد مصلي ورع، ما رأى المساكين واليتامى والأرامل في الإسلام كله بعد النبي ﷺ وأبي بكر مثله، ولكنه كان شديدا في بعض المواطن، عمر بالذات كثير من الناس يشعر برقة قلبه وهو يشتد؛ لأن هذه الشدة ليست من باب التشفي بالآخرين أو الاستعلاء عليهم، بل من باب الخشية عليهم أو التطبيق لأوامر الله عز وجل، أيضا مثلا عندنا في تاريخنا يوجد راوي حديث، إمام من أئمة الجرح والتعديل اسمه شعبة بن الحجاج، شعبة رحمه الله هذا يعتبر من كبار أئمة الجرح والتعديل وممن تكلموا في الرجال ونقدوا، وكم تكلموا في الضعفاء والكذابين بكلام غليظ وقوي؛ ذبا عن سنة رسول الله - ﷺ تقرأ في ترجمة شعبة تجد أن شعبة هذا رحمه الله كان من أرحم الناس بالمسكين، ممكن بعض الناس يقول كيف هذا المحارب على جواده الذي أثخن بالضعفاء والكذابين يكون رقيق القلب مع المساكين ؟

والله الباب واحد؛ كما أمْر الصديق هذا الذي يبكي في الصلاة، وغضب على أهل الردة؛ الباب واحد.

شعبة عنده تلميذ اسمه يحيى بن سعيد القطان، يحيى بن سعيد القطان اسمه مرعب عند أهل الحديث، معروف أنهم من أئمة الجرع والتعديل أهل الشدة، ومع ذلك تقرأ ترجمته تجده رقيق القلب جدا، حتى كان يُغشى عليه إذا سمع بعض الآيات، كان لا يذهب إلى الحمام وحده وسبحان الله له أحوال عجيبة من رقة القلب الشديدة، والذي لما جاء يحتضر قالوا له إن أهل البصره يرجون لك على صلاحك، ولكن يخافون من كلامك في الناس للحديث، فقال يحي بن سعيد القطان رحمه الله لئن يكون هؤلاء خصومي يوم القيامة أحب إلى من أن يكون رسول الله ﷺ خصيما لي.[1]

الفصل السابق والكلام السابق، ما الذي أريده منه ؟

الذي أريده أن اليوم بعض الناس من الممكن أن يأخذ عناوين شرعية، تتحدث عن رقة القلب عن التزكية وعن غيره، ويضعها في غير موضعها، فيجعلها بابا للتعاملات الإنسانوية المبنية على المصلحية المحضة، والمجاملة المحضة، بل المبنية على أخلاق السوق، اليوم مثلا إذا عملت في مؤسسة رأسمالية؛ تطالَب بالنفاق فيقال لك : "الزبون دائما على حق"!

[1] سؤالات السلمي للدارقطني (٢٦٢)

مثلا إنسان إذا أراد أن يهرب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ لا بد منه، فيقول لك: أنا قلبي يقسو إذا أخذت وأعطيت مع هؤلاء! من طلب منك أن تأخذ وتعطي؟

المطلوب منك أن تنكر المنكر وأن توضح، هذا الإمام أحمد من أرق الناس قلبا، ومشهور وهناك إجماع على أنه زاهد ورع، ثم تجد عباراته في أهل البدع كالصواعق، ومن الناس الذي فيه احتقان داخلي، هذا الاحتقان الداخلي يخرجه باسم نصرة السنة، ثم تجد صاحبنا هذا سبابا لعانا طعانا ولا يوجد فيه شيء من أحوال أهل رقة القلب، فلا تجد فيه الرحمة للمساكين، لا تجد فيه كثرة ذكر الله، لا تجد فيه الحرص للخير على الناس، حتى تجده لا يُفرز بين أصناف المخالفين له، لا يفرّق بين إنسان هو صاحبَ عناد وبين إنسان آخر مستشكل، وظهر منه شيء من الاقتراب للحق، وبين إنسان أصلا مَسترشد لا يعرف شيء، هو إنسان مسترشد، وبين إنسان آخر متعالم ما يفرّق، كلهم يضعهم في محل واحد يفرّغ فيهم نقماته النَفسية، يَضربهم ضربة واحدة ويقول لك أنا غاضب لله، لا، لست غاضبا لله، ليس هذا غضب لله! الحالة الأتم هذا.

وإذا أردت أن تعالج غلوا أو خروجا عن الحد عليك أن تعظ الناس بأحوال القوم الذين كانوا يغضبون لله عز وجل كما ينبغي، ولهم مواقف عظيمة جليلة في ذات الله تبارك وتعالى وهم في الوقت نفسه لهم أحوالهم الأخرى.

فالخلاصة هل يمكن أن توجد غلظة على المنافقين سببها رقة القلب؟

نعم، وهذا ما لم يفهمه كثيرون ممن تأثروا مثلا بالقيم الكانطية، التي مثلا تقول لك : اللين دائما جيد، الصدق دائما جيد، حتى لو بني عليه موت إنسان بريء.

الشريعة فيها هذا الضبط، وأن يبيَّن لك أنك أحيانا تحتاج أن تشتد وأحيانا تحتاج أن تلين، أحيانا تفعل هكذا وأحيانا تفعل هكذا.

أحيانا تتكلم في أناس أنت تحبهم، ولكن تبين غلطا غلطوه، وأحيانا تُنصف أناسا تعطي حقا لأناس أنت تبغضهم، ولكن هذا حقهم، لا تستطيع أن تتخلف عن ذلك، هناك حديث في النسائي قرأته اليو وسبحان الله وقفت عنده وقفة :

النبي ﷺ بعث مُصدّقا -يعني رجل يأخذ الصدقات- فبعثه إلى شخص، الشخصَ أعطى الصدقة -أعطاه شاة هزيلة- فلما وصلت للنبي ﷺ النبي غضب ودعا عليه، فبلغه أن رسول الله دعا عليه، أنك ما أعطيت الزكاة حقها، فذاك الرجل قال أتوب إلى الله ورسوله، ثم ذهب وأعطاه ناقة -أظن هي كانت ناقة ما كانت شاة، أعطاه ناقة حسنة فدعا له النبي ﷺ الآن النبي اشتد على هذا الرجل لكن اشتد عليه لماذا؟ لمصلحته، فلما الرجل عاد مباشرة دعا له؛ فكسب أمر الدعاء، مثل الرجل اللي قال لا أستطيع، فقال له النبي: "لا استطعت" هذا النبي ﷺ الرحمة المهداة ذو الخلق العظيم، أحيانا تحتاج أن تجعل الإنسان عبرة، بعض الناس يكون قد تجاوز، وهذا كله يُضبط بميزان السنة، لا بميزان الهوى، لكن المثاليات الزائدة هذه تلعب بالناس، كما أن إطلاق العنان للغضب الداخلي هذا أيضا يؤثر، وكله ضار، اليوم بعض الناس يخاف من الغلو خوفا شديدا، وصدقني الجفاء تراكميا قد يُحدث آثارا عظيمة لا يحدثها الغلو؛ لأن الغلو ظاهر وله صولة وَيمكن أن يواجَه، لكن الجفاء خفي وليّن ويضرب بخفاء ويهدم أمورا عظاما لا يمكن للإنسان أن يتخيلها، ثم بعد ذلك يجد للأمر نتائج كارثية، والله المستعان.

تم بحمد الله
@kaaa2006